الفصل الثالث عشر

رماد الأربعاء[1]

لقد خرج إليوت من وراء البحث حول القضايا السالفة بفكرة الصعوبة فى الجمع بين مطالب الجسد وسمو الروح ، ، وبين القيم الحسية العارضة التى تشكل حياة الأفراد فى أغلب الأحيان والقيم العليا الأخلاقية التى تهدف من ورائها إلى الاتحاد بالجوهر الكلى والفناء المطلق فى الذات الإلهية . ولصعوبة التعبير عن هذه القضايا نجد إليوت يتخذ الصورة الشعرية أساساً لمنهاجه فهى التجسيم المحدد الأبعاد للأفكار الفلسفية المجردة . وغالباً ما تصاغ هذه الصور فى قالب رمزى للدلالة على المستويات بل والاتجاهات المختلفة التى يرمى إليها الشاعر .

فى مستهل هذه القصيدة نلتقى بشخص يحاول أن يصعد درجات السلم ، وهذه الدرجات ترمز إلى مراحل الترقى والانسياب فى العالم الروحانى ، وينتهى هذا السلم عند قمته بالحب العذرى الإلهى ، إذ يقول :

« لأننى أحيا بلا أمل أن أدير وجهى ثانية
لأننى أحيا بلا أمل
لأننى أحيا بلا أمل أن أدير وجهى
أطمع فى موهبة هذا الإنسان أو أفق ذاك الرجل
فلماذا أحاول ثانية بلوغ هذا المنى
(ولم يبسط الصقر المسن جناحيه ؟)
ولم أحزن
لزوال السلطان عن مجد عادى ؟ »[2]

---

(١) "Ash Wednesday"

يشير هذا الرماد إلى العنصر الأصل الذى نشأ منه الإنسان ، فهو من الرماد وإليه يعود .

(٢) "Because I do not hope to turn again
Because I do not hope

لقد اقتبس إليوت فكرته التى رددها فى الثلاث أبيات الأولى من الشاعر الإيطالى جيدو كافالكانتى[١] وهو صديق دانتى الحميم . ذلك أن جيدو قد اشترك فى المؤامرات التى حدثت فى فلورنسا فى أواخر القرن الثالث عشر ، وانتهى الأمر بنفيه إلى سارزانا[٢] سنة ١٣٠٠ حيث أصيب بالحمى وتوفى بعد ذلك بقليل . وقبل مماته كتب إلى حبيبته يقول :

« إننى أحيا بلا أمل أن أعود ثانية
إلى (تسكانيا) ، يا بلاتيتا . . . »[٣]

والفرق واضح بين الرجلين : فالشاعر الإيطالى يحاول أن يعود إلى حبيبته بعد أن حكم عليه بالنفى ففقد كل أمل فى الحياة ، وصاحبنا الذى يحدثنا عنه إليوت قد فقد الأمل فى قدرته على أن يدير وجهه عن العالم الحسى الصاخب ليبدأ فى ارتقاء سلم الحياة الصوفية . فهو يحاول منذ بادئ ذى بدء أن يزدرى المواهب الحسية بآفاقها المحددة . إنه يرى وهو فى أول الطريق أن هذا الارتقاء صعب وشاق ، ويشعر بأن صحته قد وهنت ، وقوته قد ضعفت ، إذ يقول : « ولم يبسط الصقر المسن جناحيه ؟ »

إنه يحس فى قرارة نفسه بضعفه البشرى وبحدود إمكانياته ، وبقصوره فى مضمار الحياة الصوفية السامية ، إذ من العسير عليه اقتحامها ، ذلك أنه يحيا

Because I do not hope to turn
Desiring this man's gift and that man's scope
I no longer strive to strive towards such things
(Why should the aged eagle stretch its wings ?)
Why should I mourn
The vanished power of the usual reign ?"
Ibid., "Ash Wednesday," p. 93.

(١) Guido Cavalcanti
(٢) Sarzana
(٣) "Perch'io non spero di tornar gia mai,
Ballatetta, in Toscana ...."
"I do not hope to turn ajain,
Ballatetta, to Tuscany."

وسط إطار إنسانى محاط بسياج من الزمان والمكان ، إذ يقول :

« لأننى أعلم أن الزمان هو الزمان دائماً
وأن المكان هو المكان دائماً ولا شىء غير ذلك
وأن ما هو واقعى إنما بالنسبة لزمان خاص
ولمكان معين
فإننى أبتهج لأن الأمور كما هى عليها
وأفقد الأمل فى رؤية الوجه المبارك
كما أفقد الأمل فى سماع الصوت »[١] .

بعد هذه الاستحالة المادية فى تغير عنصر الزمن يبتهج صاحبنا لأن الأمور تسير كما هى عليها ، وكما هو عهده بها ، وبخاصة بعد أن فقد الأمل فى التحول إلى الحياة الروحية وسماع الأصوات الملائكية . إنه هنا يعيش فى حاضره بعد أن ضاع الأمل فى المستقبل المشرق ، فيصلى إلى الله ، ويطلب من الخالق جل شأنه العون والمساعدة ، إذ يقول :

« وأضرع إلى المولى أن يتغمدنا برحمته
وأتوسل إليه أن ينسى
هذه الأمور التى أسرفت فى مناقشتها
وأسرفت فى تفسيرها
لأننى أحيا بلا أمل أن أدير وجهى ثانية
فلتكفر هذه الكلمات

---

(١) "Because I know that time is always time
And place is always and only place
And what is actual is actual only for one time
And only for one place
I rejoice that things are as they are and
I recounce the blessed face
And renounce the voice."
Ibid.

عما أقدمت عليه

ولتكن رادعة لى فلا أعود إليها ثانية

رب لا تثقل ديونتنا بأكثر مما نحتمل »[١] .

إنه يضرع إلى الخالق أن يتغمده برحمته وأن يغفر له زلاته التى صنعها بإرادته ، وأن يبعد عنه تلك الأمور التى أسرف فى مناقشتها ولم يصل إلى نتيجة مرضية فى حلها . لتكن هذه الكلمات حداً فاصلاً بين الشر والخير، وليبدأ صفحة بيضاء ناصعة فى تاريخ حياته فلا يعود إلى تلك المعاصى التى ارتكبها فى شبابه . وبعد هذه التوبة الحقيقية يطلب من الله أن يرأف به يوم الدينونة .

* * *

ثم تراءت له سيدة ملتفة برداء أبيض وهى رمز مجسم لكل القوى الخيرة وتشبه إلى حد بعيد بياتريس[٢] رمز الحكمة والكمال ، وقد تغنى بحبها وأولع بطهرها وعفافها دانتى . ويقول إليوت :

« لقد عادت السيدة

التى تلبس الرداء الأبيض ، للتأمل وهى تلبس هذا الزى .

لتكفر العظام ببياضها عنا حتى النسيان .

فهى خالية من الحياة . وما دمت منسياً

---

(١) "And pray to God to have mercy upon us
And I pray that I may forget
These matters that with myself I too much discuss
Too much explain
Because I do not hope to turn again
Let these words answer
For what is done, not to be done again
May the judgment not be too heavy upon us."
Ibid., p. 94.

(٢) Beatrice

ومتناسباً ، فإنى سأتناسى نفسى
حين أتفانى فى هدفى الذى ركزت عليه .
وقد أوحى للريح نبوءة من الله ، للريح وحدها ،
فهى التى تستمع للنبوءات » .(١)

إن لحظات النسيان فى التصوف ضرورية لفترات التأمل كما أنها ضرورية أيضاً للتركيز على الأغراض السامية التى ينشدها الإنسان ، ولهذا فإن صاحبنا يحاول أن يتناسى الماضى بأحداثه وفعاله ليتمكن من التركيز على حاضره الذى يعيش فيه ومستقبله الذى ركز فيه كل آماله . إن العظام وهى رمز الموت قد استعملها الشاعر هنا كناية عن إماتة الجسد ، واللون الأبيض الذى اكتسبته هذه العظام دليل على طهرها ونقاوتها . وهى خالية من الحياة الدنيوية لأنها على أهبة الاستعداد لملاقاة حياة الآخرة . أما الريح التى كانت تعيث فساداً فى « الأرض الخراب » فقد تحولت هنا إلى نسمة هادئة من نسمات الخلود ، ونفحة من روح الخالق يحيى بها هذه العظام بعد موتها .

من هنا أخذت العظام تغنى وهى تستقبل عبير الآخرة الذى يهب عليها من جنة عدن ، فتقول :

« نهاية لا آخر لها
رحلة بلا نهاية
ختام كل ما ليست

---

(١) The lady is withdrawn
In a white gown, to contemplation, in a white gown.
Let the whiteness of bones atone to forgetfulness.
There is no life in them. As I am forgotten
And would be forgotten, so I would forget
Thus devoted, concentrated in purpose. And God said
Prophesy to the wind, to the wind only for only
The wind will listen."
Ibid., p. 95.

له خاتمة
حديث بلا كلمة
وكلمة بلا حديث »[١] .

فرحلة الآخرة لها بدايتها لكننا لا نعرف لها نهاية ، كما أنها فى حد ذاتها خاتمة المطاف بعد تجوالنا فى معترك الحياة . أما « الحديث بلا كلمة » فهو الحب العذرى الذى يعبر عن المحبة الإلهية دون حاجة إلى الإفصاح اللغوى ، و « الكلمة بلا حديث » هى الحقيقة المطلقة التى لا تقبل الجدل ، وهى التى وجدت منذ الأزل وستظل موجودة إلى الأبد دون أن يعتريها أى تغير أو تبديل .

* * *

وبعد هذه الأفكار الفلسفية التى راودت صاحبنا عن الأبدية ، يدير وجهه تجاه المنعطف المؤدى إلى « طريق الكمال » ويقول :

« عند المنعطف الأول للسلم الثانى
أدرت وجهى ورأيت أسفلا
نفس الشبح وقد التوى على حاجز السلم
تحت البخار فى الهواء الفاسد
وهو يصارع شيطان السلم
بوجهه المخادع الذى ينم عن الأمل واليأس »[٢] .

---

(١) "End of the endless
Journey to no end
Conclusion of all that
Is inconclusible
Speech without word and
Word of no speech."
Ibid., p. 96.

(٢) "At the first turning of the second stair
I turned and saw below
The same shape twisted on the banister

إن التعبير الذى أورده لنا إليوت فى البيت الثالث وهو « نفس الشبح » لايعنى به فرداً معيناً بل يشير فى بلاغة وحذق إلى غيره من بنى البشر الضالين الذين لم يتمكنوا من الصعود على سلم الكمال بل تعلقوا بحاجزه . أما الهواء الفاسد فهو الهواء المشبع بدخان المصانع وبالأبخرة المتصاعدة من القاطرات وغيرها من المخترعات الحديثة . إن هذا السلم هو الحد الفاصل بين حياة المجون واللهو والاستهتار وحياة النضج والفضيلة . وبطبيعة الحال يقف الشيطان على باب السلم ليصارع من أرادوا اقتحامه ، والمجاز هنا واضح كل الوضوح .

ولما وصل إلى السلم الثالث وجد فتحة فى النافذة وقد انتفخت كالتينة الكبيرة ، ومن خلفها تزاحمت المرئيات التى عبر عنها بقوله :

« ورأيت وراء أزاهير العضّة وخلف المراعى
صاحب الظهر العريض فى ردائه الأزرق المشوب بالخضرة
يسحر الربيع بناى عتيق .
الشعر المسترسل جميل ، والشعر الداكن قد أسدل على الفم .
السوسن والشعر الداكن .
التشتت الفكرى ، والموسيقى التى تنبعث من الناى . ونزوات العقل
على السلم الثالث »[1] .

إن هذه الصور الشعرية المتعددة تبين لنا العوائق الكثيرة التى تقف فى وجه

Under the vapour in the fetid air
Struggling with the devil of the stairs who wears
The deceitful face of hope and of despair."
Ibid., p. 97.

(١) "And beyond the hawthorn blossom and a pasture scene
The broadbacked figure drest in blue and green
Enchanted the maytime with an antique flute.
Blown hair is sweet, brown hair over the mouth blown,
Lilac and brown hair;
Distraction, music of the flute, stops and steps the mind over the third stair."
Ibid.

صاحبنا لتكون حائلة دون صعوده إلى أعلى درجات السلم ، وهى تمثل النشاط المادى والطبيعى الذى يجذب الإنسان إليه فيعوقه عن التقدم خلقيًّا وروحيًّا. فالأزاهير والمراعى تعطينا لمحة عن جمال الطبيعة الخلاب ، أما صاحب الظهر العريض فهو راعى الأغنام بآلته الموسيقية ، والشعر الداكن المسترسل رمز الخصوبة والجمال البدنى . إن التينة المنتفخة ترمز إلى الآثام والمعاصى التى ارتكبها بنو البشر فى الماضى .

* * *

ولهذا تذكر صاحبنا على الفور الماضى بكل ما فيه من نزوات شبابية ورغبات وميول قد انحرفت به فى تيار الرذيلة وأبعدته عن الطريق القويم ، فتتراءى أمامه الدقائق والسويعات التى قضاها بين النوم واليقظة ، وهو يتطلع الآن إلى :

« إشراق السنوات الجديدة ،
حينما تبعث الماضى خلال سحابة وضاءة من الدموع .
كما تعيد إلينا الأوزان الشعرية القديمة فى صياغة مستحدثة .
اللهم أنقذ هذا الزمن . وأنقذ
الرؤيا المستترة فى الحلم السامى
حين تجر وحيدة القرن المرصعة بالجواهر النعش الذهبى »[1] .

نعم ، لقد هلت عليه بشائر السنوات الجديدة مشرقة ضاحكة بعد أن ذرف الدمع سخيًّا حينما قدم إلى هذا المحراب خاضعاً خاشعاً معترفاً بكل ذنوبه . إن غمامة الماضى قد أضاءتها نورانية الحاضر . وبعد أن شعر بهذا التقدم

---

(١) "The new years walk, restoring
Through a bright cloud of tears, the years, restoring
With a new verse the ancient rhyme. Redeem
The time. Redeem
The unread vision in the higher dream
While jewelled unicorns draw by the gilded hearse."
Ibid., p. 98.

الملموس تضرع إلى المولى أن ينقذ البشرية وأن يفتح بصائر الناس لتنكشف أمامهم « الرؤيا المستترة» ليعرفوا أن الأمجاد الأرضية التى ترمز إليها « النعوش الذهبية » لا قيمة لها .

* * *

وبعد هذا التفتت الذى أصاب الأنا القديمة بكل شهواتها ومعاصيها . حلت محلها النفس الواعية الجديدة ، وتسربل صاحبنا فى ثوبه الروحى القشيب بعد أن نفر من العالم وازدرى كل ما فيه من محسوسات ؛ فتطلعت هذه النفس الجديدة إلى العلا طالبة المزيد وبخاصة بعد أن فتحت السرائر ، وانكشفت الخبايا . وظهرت المكنونات والحقائق بجوهرها وسرها . وبينما هو غارق فى تأملاته إذ به يرى أمامه رؤية مجسمة لراهبة فى ثوب ناصع البياض ، فيقترب منها ويرجوها فى وداعة :

« ترى هل تصلى الأخت المحجبة
من أجل الذين يسيرون فى الظلام
ومن أجل الذين اختاروك وجحدوك
ومن أجل الذين تمزقوا على قرن (الحيوان) بين الموسم والموسم .
وبين الوقت والآخر ،
وبين الساعة والساعة ، والكلمة والكلمة ، والقوة والقوة .
ومن أجل الذين ينتظرون فى الظلام ؟
ترى هل تصلى الأخت المحجبة
من أجل الأطفال بالقرب من الباب
أولئك الذين لا ينصرفون ولا يمكنهم الصلاة »[1] .

---

(١) "Will the veiled sister pray for
Those who walk in darkness, who chose thee and oppose thee
Those who are torn on the horn between season and season, time and time, etween
Hour and hour, word and word, power and power, those who wait

الذين يسيرون فى الظلام هم الذين يسيرون فى طريق الغواية بعيداً عن الخالق . أما الذين تمزقوا فهم الشهداء الذين صارعوا الثيران فى ساحات الاستشهاد فتمزقت أحشاؤهم فى غير شفقة ولا رحمة بين الفينة والفينة . ومن العسير إذن على الأطفال الذين يشعون براءة وطهراً أن يغادروا هذا المكان الذى استشهد فيه أجدادهم من قبل وقد تحول الآن إلى حديقة غناء يغدون فيها ويمرحون .

* * *

حينئذ يتعانق المكان مع الزمان وتتشابك العناصر وتتحد فى نسق كلى متجانس . بعد أن هدأت ثورة الجسد . ومن ثم

« تنتعش الروح الضعيفة وتتمرد
من أجل القضيب الذهبى الذى أثنى عوده
ومن أجل رائحة البحر الضائعة
إنها تنتعش لتستعيد
صوت السماء ودوران العصفور »(١) .

هذه هى الروح التى تتصارع مع قوى الشر ومع التيه والكبرياء وحب الظهور المتأصل فى نفس الإنسان . لكن هذا القضيب البراق الذى يكنى عن هذه الميول كلها قد أثنى عوده بعد أن جحدت النفس كل هذه الأمور. إنها تستعيد الماضى الملىء بحسه وانفعالاته وذكرياته عن رائحة البحر وخرير المياه وشقشقة العصافير .

---

(١) "And the weak spirit quickens to rebel
For the bent golden-rod and the lost sea smell
Quickens to recover
The cry of quail and the whirling plover."
Ibid., p. 102.

In darkness ? Will the veiled sister pray
For children at the gate
Who will not go away and cannot pray."
Ibid., pp. 100 — 101.

وبعد هذا الصراع المرير بزغت الروح من مكمنها ، وأخذت تحلق فى الأفق الذى ارتسمته لنفسها حول الوحدة التأملية الخلابة التى كانت تنشدها عند أول الطريق . فما كان من المادة إلا أن انحسرت وتراجعت منذوية بعد أن تأرجحت زمناً طويلاً فى قوة وفى عنفوان . أما النفس الواعية فقد اكتسبت شفافية لم تعهدها من قبل ، وقدرة على معرفة الماضى والحاضر ، والإلمام بأسرار الحياة والموت :

« فذلك هو زمن الصراع بين الموت والحياة
وهذا هو مكان الوحدة حيث تمر أحلام ثلاث
بين الصخور الزرقاء »[1] .

هذه الأحلام الثلاث عن الحياة والموت والخلود هى نهاية المطاف . ولعل الحلم الثالث والأخير هو ما كان يداعب مخيلة صاحبنا منذ أول الطريق . إنه ليس حلماً بالمعنى المتعارف عليه بل هو « رؤيا » تنم عن بصيرة نفاذة وقوة روحية قد اكتسبها فى خلوته بين الصخور الزرقاء حيث تتعانق الأرض مع السماء فى هذا الأفق البعيد الذى تنعكس فيه صفحة السماء الزرقاء على أمواج البحر بمياهها الصافية .

ولعل هذه الرؤيا ناتجة عن الخضوع الكلى للإرادة الإلهية بعد إذلال الجسد ، وإماتة شهواته ، ودحض ميوله ورغباته ، وما أعقب ذلك من تطلع إلى العلا ، فتبدو « الحقيقة » سافرة وضاءة فى تكاملها ، تهب المعرفة لمن أراد أن ينهل من مشاربها وخضمها الزاخر الذى لا ينضب معينه ، وتزيح الستار عن البصائر المعتمة المغلقة ، فتستجيب النفوس فى ظمئها إلى تلك الينابيع الحية النابعة من أعماق السرائر الشفافة والروحانية الأصيلة .

---

(١) "This is the time of tension between dying and birth
The place of solitude where three dreams cross
Between blue rocks."
'Ibid.